

تفسير سورة الزمر

وهي مكية

روى النسائي عن عائشة ، قالت : كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول : ما يريد أن يفطر . ويفطر حتى نقول : ما يريد أن يصوم . وكان يقرأ في كل ليلة بنى إسرائيل والزمر (١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ ﴿ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۗ سُبْحٰنَهُ ۗ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ ﴿

يخبر تعالى أن تنزيل هذا الكتاب - وهو القرآن العظيم - من عنده، تبارك وتعالى، فهو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، كما قال عز وجل: ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥] . وقال: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١ ، ٤٢] . وقال هاهنا: ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ ﴾ أى: المنبج الجنب ، ﴿ الْحَكِيمِ ﴾ أى: فى أقواله وأفعاله، وشرعه، وقدره . ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أى: فاعبد الله وحده لا شريك له، وادع الخلق إلى ذلك، وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده ، وأنه ليس له شريك ولا عدل ولا تديد؛ ولهذا قال: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ أى: لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده، لا شريك له . وقال قتادة فى قوله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ : شهادة أن لا إله إلا الله .

ثم أخبر عز وجل عن عبادة الأصنام من المشركين أنهم يقولون: ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أى: إنما يحملهم على عبادتهم لهم أنهم عمدوا إلى أصنام اتخذوها على صور الملائكة المقربين فى رعبهم، فعبدوا تلك الصور تنزيلا لذلك منزلة عبادتهم الملائكة؛ ليشفعوا لهم عند الله فى نصرهم وورقهم، وما ينوبهم من أمر الدنيا، فأما المعاد فكانوا جاحدين له كافرين به . قال قتادة، والسدى، وزيد ابن أسلم: ﴿ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ أى: ليشفعوا لنا، ويقربونا عنده منزلة . ولهذا كانوا يقولون فى تليبتهم إذا حجوا فى جاهليتهم: «بيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك» . وهذه الشبهة هى التى اعتمدها المشركون فى قديم الدهر وحديثه، وجاءتهم الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، بردها والنهى عنها ، والدعوة إلى أفراد العبادة لله وحده لا شريك له ، وأن هذا شئ اخترعه المشركون من عند أنفسهم، لم يأذن الله فيه ولا رضى به ، بل أبغضه ونهى عنه: ﴿ وَقَدْ بَخَّسْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبُوا الطَّائِفَاتِ ﴾ [النحل: ٣٦] . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي

(١) النسائي فى الكبرى (١١٤٤٤)، والترمذى (٢٩٢٠)، وقال: «حسن غريب» .

إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿ [الانبياء : ٢٥] . وأخبر أن الملائكة التي في السموات من المقرين وغيرهم ، كلهم عبيد خاضعون لله ، لا يشفعون عنده إلا بإذنه لمن ارتضى ، وليسوا عنده كالأمراء عند ملوكهم ، يشفعون عندهم بغير إذنهم فيما أحبه الملوك وأبوه ، ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ﴾ [النحل : ٧٤] ، تعالى الله عن ذلك .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أى : يوم القيامة ، ﴿ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ أى : سيفصل بين الخلائق يوم معادهم ، ويجزى كل عامل بعمله ، ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ : ٤٠ ، ٤١] . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أى : لا يرشد إلى الهداية من قصده الكذب والافتراء على الله ، وقلبه كافر بأياته وحججه وبراهينه .

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة ، والمعاندون من اليهود والنصارى في العزيز وعيسى ، فقال : ﴿ تَوَارَدَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لِأَمْطَلْفَى مَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى : لكان الأمر على خلاف ما يزعمون . وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوارده ، بل هو محال ، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه ورعوه ، كما قال : ﴿ تَوَارَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَا لِأَتَّخِذَنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الانبياء : ١٧] ، ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف : ٨١] ، كل هذا من باب الشرط ، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد التكلم . وقوله : ﴿ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ أى : تعالى وتنزهه وتقدس عن أن يكون له ولد ، فإنه الواحد الاحد ، الفرد الصمد ، الذى كل شيء عبد لديه ، فقير إليه ، وهو الغنى عما سواه ، الذى قد قهر الاشياء فلذات له وذلت وخضعت .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكُوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بَطُونٍ وَمَهَاتٍ كَيْفَ يَشَاءُ خَلَقَكُمْ مِنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظُلُمَاتٍ فَلَمَّ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَى تُصْرَفُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه الخالق لما في السموات والأرض ، وما بين ذلك من الاشياء ، وأنه مالك الملك المتصرف فيه ، يقرب ليله ونهاره ، ﴿ يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيُكُوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ أى : سخرها بجريان متعاقبين لا يفتران ، كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا ، كقوله : ﴿ يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الاعراف : ٥٤] هذا معنى ما روى عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وغيرهم .

وقوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أى : إلى مدة معلومة عند الله ثم تنقضى يوم القيامة ﴿ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴾ أى : مع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأتاب إليه . وقوله : ﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ أى : خلقكم مع اختلاف أجناسكم وأصنافكم والستكم والوانكم من نفس واحدة ، وهو آدم ، عليه السلام ، ﴿ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ ، وهى حواء ، عليهما السلام ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] . وقوله : ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ﴾ أى : وخلق لكم من ظهور الانعام ثمانية أزواج ، وهى المذكورة

في سورة الانعام : ﴿ لَمَّا نِيَّ أَزْوَاجُ مِنَ الضَّالِّينَ مِنَ الْمُعْزِثِينَ ﴾ [الانعام : ١٤٣] ، ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ﴾ [الانعام : ١٤٤] .

وقوله : ﴿ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أى : قدركم فى بطون أمهاتكم ﴿ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ ﴾ أى : يكون احدكم اولاً نطفة ، ثم يكون علقة ، ثم يكون مضغة ، ثم يخلق فيكون لحماً وعظماً وعصياً وعروقاً ، وينفخ فيه الروح فيصير خلقاً آخر ، ﴿ فَبَارِكِ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] . وقوله : ﴿ لَبِىَّ ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٌ ﴾ يعنى : ظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة - التى هى كالغشاوة والوقاية على الولد - وظلمة البطن . كذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة . وقوله : ﴿ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ أى : هذا الذى خلق السموات والأرض وما بينهما وخلقكم وخلق آباءكم ، هو الرب له الملك والتصرف فى جميع ذلك ، ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أى : الذى لا تنبغى العبادة إلا له وحده ، ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ أى : فكيف تعبدون معه غيره؟ أين يذهب بعقولكم؟

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه تعالى : أنه الغنى عما سواه من المخلوقات ، كما قال موسى عليه السلام : ﴿ إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَبِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٨] . وفى صحيح مسلم : « يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجل منكم ، ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » (١) . وقوله ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ﴾ أى : لا يجه ولا يأمر به ، ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ أى : يجه منكم ويزدكم من فضله . ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ أى : لا تحمل نفس عن نفس شيئاً ، بل كل مطالب بأمر نفسه ، ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : فلا تخفى عليه خافية .

وقوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أى : عند الحاجة يضرع ويستغيث بالله وحده لا شريك له ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَن يَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمَنْعْتُم مَّا كَانُوا الْإِنْسَانَ ظُفْرًا ﴾ [الإسراء : ٦٧] . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًّا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ أى : فى حال الرفاهية ينسى ذلك الدعاء والتضرع ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ ﴾ [يونس : ١٢] .

وقوله : ﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أى : فى حال العافية يشرك بالله ، ويجعل له أنداداً ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴾ أى : قل لمن هذه حاله وطريقته ومسلكه : تمتع بكفرك قليلاً . وهو تهديد شديد ووعد أكيد ، كقوله : ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَّصِيرُكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٣٠] ، وقوله : ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان : ٢٤] .

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَاتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَامًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

يقول عز وجل: أمن هذه صفة كمن أشرك بالله وجعل له أندادا؟ لا يستورون عند الله، كما قال تعالى: ﴿ تَسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَالِمَةٌ يَفْرَقُونَ آتَاءَ اللَّهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٣]، وقال هاهنا: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَامًا ﴾ أى: فى حال سجوده وفى حال قيامه؛ ولهذا استدلل بهذه الآية من ذهب إلى أن القنوت هو الخشوع فى الصلاة، ليس هو القيام وحده، كما ذهب إليه آخرون. قال ابن مسعود: القانت: المطيع لله ولرسوله. وقال ابن عباس، والحسن: ﴿ آتَاءَ اللَّيْلِ ﴾: جوف الليل. وقال منصور: بلغنا أن ذلك بين المغرب والعشاء. وقال الحسن، وقتادة: ﴿ آتَاءَ اللَّيْلِ ﴾: أوله وأوسطه وآخره.

وقوله: ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ أى: فى حال عبادته خائف راج، ولا يبد فى العبادة من هذا وهذا، وأن يكون الخوف فى مدة الحياة هو الغالب؛ ولهذا قال: ﴿ يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾، فإذا كان عند الاحتضار فليكن الرجاء هو الغالب عليه. عن يحيى اليكأ، أنه سمع ابن عمر قرأ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَامًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾، قال ابن عمر: ذاك عثمان بن عفان. وإنما قال ابن عمر ذلك؛ لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته، حتى إنه ربما قرأ القرآن فى ركعة، كما روى ذلك أبو عبيدة عنه.

وقوله: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ ﴾ أى: هل يستوى هذا والذي قبله من جعل لله أندادا ليضل عن سبيله؟ ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ أى: إنما يعلم الفرق بين هذا وهذا من له لب وهو العقل.

﴿ قُلْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أُعْبِدَ اللَّهَ مَخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿ وَإُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

يقول تعالى أمرا عباده المؤمنين بالاستمرار على طاعته وتقواه ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ أى: لمن أحسن العمل فى هذه الدنيا حسنة فى دنياهم وأخرامهم. ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ قال مجاهد: فهاجروا فيها، وجاهدوا، واعتزلوا الأوثان. وقال عطاء فى قوله: ﴿ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ﴾ قال: إذا دعيتم إلى المعصية فاهربوا، ثم قرأ: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةً فَهَاجَرُوا إِلَيْهَا ﴾ [النساء: ٩٧]. ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ قال الأوزاعى: ليس يوزن لهم ولا يكال، إنما يغرف لهم غرقا. وقال ابن جريج: بلغنى أنه لا يحسب عليهم ثواب عملهم قط، ولكن يزدادون على ذلك. وقال السدى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾: معنى فى الجنة.

وقوله: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أُعْبِدَ اللَّهَ مَخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ أى: إنما أمرت بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، ﴿ وَإُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾، قال السدى: معنى من أمته عليه السلام.

﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ ﴿ قُلْ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لِمِ دِينِي ﴾ ﴿ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَيْرَ لَمَعَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ لَمْ يَنْ يَنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ لِيُعَابِدُوهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾

يقول تعالى: قل يا محمد وانت رسول الله: ﴿إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ وهو يوم القيامة. وهذا شرط، ومعناه التعريض بغيره بطريق الأولى والآخرى، ﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني. فاعبدوا ما شئتم من دونه﴾، وهذا أيضاً تهديد وتبر منهم، ﴿قل إن الخاسرين﴾ أي: إنما الخاسرون كل الخسران ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ أي: تفارقوا فلا تقاه لهم أبداً، وسواء ذهب أهلهم إلى الجنة وقد ذهبوا هم إلى النار، أو أن الجميع أسكنوا النار، ولكن لا اجتماع لهم ولا سرور، ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾ أي: هذا هو الخسران المبين الظاهر الواضح.

ثم وصف حالهم في النار فقال: ﴿لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل﴾ كما قال: ﴿لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غراسر وكذلك تجري الظالمين﴾ [الاعراف: ٤١]، وقال: ﴿يوم يشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ [المنكوت: ٥٥]. وقوله: ﴿ذلك يخوف الله به عباده﴾ أي: إنما يقص خبر هذا الكائن لا محالة ليخوف به عباده، ليتزجروا عن المحارم والمآثم ﴿يا عباد فاتقون﴾ أي: اخشوا بأسى وسطوتي، وعذابي ونقمتي.

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادَ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أَزْوَاجُ الْأَلْبَابِ ﴿١٤﴾ ﴾

قال زيد بن اسلم: ﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾ نزلت في زيد بن عمرو بن نفيل، وأبي ذر، وسلمان الفارسي. والصحيح أنها شاملة لهم ولغيرهم، ممن اجتنب عبادة الأوثان، وأناب إلى عبادة الرحمن. فهؤلاء هم الذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ثم قال: ﴿فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ أي: يفهمونه ويعملون بما فيه، كقوله تعالى لموسى حين أتاه التوراة: ﴿فخذها بقوة وأمر قومك بأخذها بأحسبها﴾ [الاعراف: ١٤٥]. ﴿أولئك الذين هداهم الله﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، أي: ذوو العقول الصحيحة، والفطر المستقيمة.

﴿ أَمَّنَ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأنت تُنقذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٥﴾ لَكِنِ الَّذِينَ آفَقُوا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرْفٌ مِّنْ قَوْفِهَا عُرْفٌ مُّبِينَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَحِلُّ لُ اللَّهِ الِيعَادِ ﴾

يقول تعالى: أمنن كتب الله أنه شقي تقدر تنقذه مما هو فيه من الضلال والهلاك؟ أي: لا يهديه أحد من بعد الله؛ لأنه من يضل الله فلا هادي له، ومن يهده فلا مضل له.

ثم أخبر عن عباده السعداء أن لهم عرفاً في الجنة، وهي القصور الشاهقة، ﴿من فوقها عرف مبنية﴾ أي: طباق فوق طباق، مبنيات محكمات مزخرفات عاليات. روى الإمام أحمد عن أبي مالك الأشمري

قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها ، أهدى الله لمن أطعم الطعام ، وألان الكلام ، وتابع الصيام ، وصلى والناس نيام . » تفرد به أحمد (١) . وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء » . قال : فحدثت بذلك النعمان بن أبي عياش ، فقال : سمعت أبا سعيد الخدري يقول : « كما تراءون الكوكب الدرى في الأفق الشرقى أو الغربى » . أخرجه في الصحيحين (٢) ، وأخرجه أيضاً في الصحيحين عن أبي سعيد ، عن النبي ﷺ (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون في الجنة أهل الغرف ، كما تراءون الكوكب الدرى الغارب في الأفق الطالع ، في تفاضل أهل الدرجات » . فقالوا : يا رسول الله ، أولئك النبيون؟ فقال : « بلى ، والذي نفسى بيده ، وأقوام آمنوا بالله وصدقوا الرسل » . ورواه الترمذى ، وقال : حسن صحيح .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال : قلنا : يا رسول الله ، إنا إذا رأيناك رقت قلوبنا ، وكنا من أهل الآخرة ، فإذا فارقتك أعجبنا الدنيا وشممنا النساء والأولاد . قال : « لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي أنتم عليها عندي ، لصافحتكم الملائكة بأكفهم ، ولزارتكم في بيوتكم . ولو لم تذبوا لجاء الله بقوم يلنبون كى يغفر لهم » قلنا : يا رسول الله ، حدثنا عن الجنة ، ما بناؤها؟ قال : « لَبَنَةٌ ذَهَبٌ وَلَبَنَةٌ قِصَّةٌ ، وملاطها المسك الأذقر ، وحصابؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم ولا يئس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه . ثلاثة لا تُردَّ دعوتهم : الإمام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوة المظلوم تُحمَل على الغمام ، وتفتح لها أبواب السموات ، ويقول الرب : وعزنى لأنصرتك ولو بعد حين » . ورواه الترمذى ، وابن ماجه (٤) .

وقوله : ﴿ تجزي من تحبها الأنهار ﴾ أى : تسلك الأنهار بين خلال ذلك ، كما يشاؤوا وأين أرادوا ﴿ وغد الله ﴾ أى : هذا الذى ذكرناه وعدَّ وعدَّ الله عباده المؤمنين ﴿ إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهَيِّجُ فَتَرَاهُ مَصْفًرًا ثُمَّ يُغْمَلُه حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ قَوْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي صُلْحٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

يخبر تعالى أن أصل الماء في الأرض من السماء كما قال عز وجل : ﴿ وأنزلنا من السماء ماءً طهوراً ﴾ [الفرقان: ٤٨] ، فإذا أنزل الماء من السماء كمن في الأرض ، ثم يصرفه تعالى في أجزاء الأرض كما يشاء ، ويبيعه عيوناً ما بين صغار وكبار ، بحسب الحاجة إليها ؛ ولهذا قال : ﴿ فسلكه ينابيع في الأرض ﴾ . عن ابن عباس في قوله عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : ليس في

(١) المسند (٣٤٣/٥) . ورواه الحاكم في مستدرکه (٨٠/١) وصححه ، ووافقه الذهبي .

(٢) المسند (٣٤٠/٥) والبخارى (٦٥٥٥) ومسلم (٢٨٣٠ ، ١١/٢٨٣١) .

(٣) البخارى (٦٥٥٦) ومسلم (١١/٢٨٣١) .

(٤) المسند (٨٠٣٠) وصحح شاکر إسناده ، والترمذى (٣٥٩٨) وابن ماجه (١٧٥٢) وقال الترمذى : « حديث حسن » .

الارض ماء إلا نزل من السماء ، ولكن عروق في الارض تغيره ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَسَلَكَهُ بَتَائِبَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فمن سره أن يعود الملح عذبا فليصمعه . وكذا قال سعيد بن جبير ، وعامر الشعبي : أن كل ماء في الارض فاصله من السماء . وقال سعيد بن جبير : أصله من الثلج ، معنى : أن الثلج يتراكم على الجبال ، فيسكن في قرارها ، فتنبع العيون من أسافلها .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يُفْرِجُ بِهِ زُرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أى : ثم يخرج بالماء النازل من السماء والتابع من الارض زرها ﴿ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ﴾ أى : أشكاله وطعمه وروائحهم ومنافعه ، ﴿ ثُمَّ يَهْبِجُ ﴾ أى : بعد نضارته وشبابه يكتهل ﴿ قَرَاهُ مُصْفَرًّا ﴾ قد خالطه اليبس ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا ﴾ أى : ثم يعود يابسا يتحطم ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ أى : الذين يتذكرون بهذا فيعتبرون إلى أن الدنيا هكذا ، تكون خضرة نضرة حسناء ، ثم تعود عجبورا شوهاء ، والشباب يعود شيخا هرما كبيرا ضعيفا ، وبعد ذلك كله الموت . فالسعيد من كان حاله بعده إلى خير ، وكثيرا ما يضرب الله تعالى مثل الحياة الدنيا بما ينزل الله من السماء من ماء ، وينبت به زروعا وثمارا ، ثم يكون بعد ذلك حطاما ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَحْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاحْتَضَتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ [الكهف : ٤٥] .

وقوله : ﴿ الْفَنِّ فَحَرَّ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أى : هل يسترى هذا ومن هو قاسى القلب بعيد من الحق ؟ كقوله عز وجل : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مِتًا فَاَحْيَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الانعام : ١٢٢] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَوَيْلٌ لِلنَّاسِ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ أى : فلا تلين عند ذكره ، ولا تخشع ولا تعى ولا تفهم ﴿ أَوْ لَيْتَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

﴿ اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِنْبًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَفْسَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾

هنا مدح من الله - عز وجل - لكتابه القرآن العظيم المنزل على رسوله الكريم ، قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِنْبًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي ﴾ قال مجاهد : معنى القرآن كله متشابه مثنائي . وقال قتادة : الآية تشبه الآية ، والحرف يشبه الحرف . وقال الضحاك : ﴿ مَثَانِي ﴾ : ترديد القول ليفهموا عن ربهم عز وجل . وقال عكرمة ، والحسن : ثنى الله فيه القضاء - زاد الحسن : تكون السورة فيها آية ، وفى السورة الاخرى آية تشبهها . وقال ابن عباس : ﴿ مَثَانِي ﴾ : القرآن يشبه بعضه بعضا ، ويرد بعضه على بعض . وقال بعض العلماء ويروى عن سفيان بن عيينة : معنى قوله : ﴿ مُتَشَابِهًا مَثَانِي ﴾ : أن سياقات القرآن تارة تكون فى معنى واحد ، فهذا من التشابه ، وتارة تكون بذكر الشيء وضده ، كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وما أشبه هذا ، فهذا من المثنائي ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفَاسِقَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانطار : ١٣ ، ١٤] ، وكقوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سَجِينٍ ﴾ [المطففين : ٧] ، إلى أن قال : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين : ١٨] ﴿ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ [ص : ٤٩] . إلى أن قال : ﴿ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّافِئِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴾ [ص : ٥٥] ، ونحو هذا من السياقات ، فهذا كله من المثنائي ، أى : فى معنيين اثنين ، وأما إذا كان السياق كله فى معنى واحد يشبه بعضه بعضا ، فهو التشابه وليس هذا من التشابه المذكور فى قوله : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] ، ذلك معنى آخر .

وقوله: ﴿تَقشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: هذه صفة الأبرار، عند سماع كلام الجبار، المهيمن العزيز الغفار، لما يفهمون منه من الوعد والوعيد، والتخويف والتهديد، تقشعر منه جلودهم من الخشية والخوف، ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤمنون من رحمته ولطفه، فهم مخالفون لغيرهم من الكفار من وجوه:

أحدها: أن سماع هؤلاء هو تلاوة الآيات، وسماع أولئك نغمات لايات، من أصوات القينات.

الثاني: أنهم إذا تليت عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا، بأدب وخشية، ورجاء ومحبة، وفهم وعلم، كما قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تَلَيَّتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْهَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣] أي: لم يكونوا عند سماعها متشاغلين لاهين عنها، بل مصغين إليها، فاهمين بصيرين بمعانيها؛ فلهذا إنما يعملون بها، ويسجلون عندها عن بصيرة لا عن جهل ومتابعة لغيرهم.

الثالث: أنهم يلزمون الأدب عند سماعها، كما كان الصحابة، عند سماعهم كلام الله من تلاوة رسول الله ﷺ تقشعر جلودهم، ثم تلين مع قلوبهم إلى ذكر الله. لم يكونوا يتصارخون ولا يتكلمون بما ليس فيهم، بل عندهم من الثبات والسكون والأدب والخشية ما لا يلحقهم أحد في ذلك؛ ولهذا فازوا بالمدح من الرب الأعلى في الدنيا والآخرة.

قال معمر: تلا قتادة: ﴿تَقشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ قال: هذا نعت أولياء الله، نعمتهم الله بأن تقشعر جلودهم، وتبكي أعينهم، وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله، ولم ينتمهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما هذا في أهل البدع، وهذا من الشيطان. وقال السدي: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: إلى وعد الله.

وقوله: ﴿ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: هذه صفة من هداه الله، ومن كان على خلاف ذلك فهو عن أضله الله، ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٢٣].

﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِهِ سِوَةَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَنْتَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿فَاذَاهُمْ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾

يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِهِ سِوَةَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ويُقرَعُ فيقال له ولا مثاله من الظالمين: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، كمن يأتي آمنة يوم القيامة؟ كما قال عز وجل: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢]، وقال: ﴿يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرًا مِمَّنْ يَأْتِي آئِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠]، واكتفى في هذه الآية بأحد القسمين عن الآخر. وقوله: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاَنْتَهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني: القرون الماضية المكذبة للرسول، أهلكهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق.

وقوله: ﴿فَاذَاهُمْ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بما أنزل بهم من العذاب والنكال وتشقى المؤمنين

بهم، فليحذر المخاطبون من ذلك، فإنهم قد كذبوا أشرف الرسل، وخاتم الأنبياء ﷺ، والذي أعده الله لهم في الآخرة من العذاب الشديد أعظم مما أصابهم في الدنيا؛ ولهذا قال: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿٣١﴾

يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ أى : بينا للناس فيه بضرب الأمثال ، ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، فإن المثل يُقَرَّبُ المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى : ﴿ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [الروم: ٢٨] أى : تعلمون من أنفسكم، وقال : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [المنكوت: ٤٣]. وقوله : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ أى : هو قرآن بلسان عربى مبين، لا اعوجاج فيه ولا انحراف ولا لبس، بل هو بيان ووضوح وبرهان، وإنما جعله الله تعالى كذلك، وأنزله بذلك ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى : يحذرون ما فيه من الوعيد، ويعملون بما فيه من الوعد.

ثم قال : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ﴾ أى : يتنازعون فى ذلك العبد المشترك بينهم ، ﴿ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ ﴾ أى : خالصا لرجل، لا يملكه أحد غيره ، ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ أى : لا يستوى هذا وهذا. كذلك لا يستوى المشرك الذى يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذى لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له. فأين هذا من هذا؟ قال ابن عباس، ومجاهد، وغير واحد: هذه الآية ضربت مثلا للمشرك والمخلص، ولما كان هذا المثل ظاهرا بينا جليا، قال: ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى : على إقامة الحجة عليهم ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ أى : فلهذا يشركون بالله.

وقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ : هذه الآية من الآيات التى استشهد بها الصديق عند موت الرسول ﷺ ، حتى تحقق الناس موته، مع قوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ومعنى هذه الآية: مستقلون من هذه الدار لا محالة، وستجتمعون عند الله فى الدار الآخرة، وتختصمون فيما أنتم فيه فى الدنيا من التوحيد والشرك بين يدى الله عز وجل، فيفصل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتح العليم، فينجى المؤمنين المخلصين الموحدين ، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين .

ثم إن هذه الآية - وإن كان سياقها فى المؤمنين والكافرين، وذَكَرَ الخصومة بينهم فى الدار الآخرة - فإنها شاملة لكل متنازعين فى الدنيا ، فإنه تعاد عليهم الخصومة فى الدار الآخرة . روى ابن أبى حاتم عن الزبير قال : لما نزلت : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال الزبير : يا رسول الله، أتكرر علينا الخصومة؟ قال : «نعم» . قال : إن الأمر إذاً لشديد. وكذا رواه الإمام أحمد ، وعنده زيادة : ﴿ ثُمَّ تَلْسَاتُنْ يَوْمَئِذٍ مِنَ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨] قال الزبير : أى رسول الله، أى نعيم نسأل عنه ؟ وإنما

- يعنى - هما الأسودان : التمر والماء ؟ قال : «أما إن ذلك سيكون». وقد روى هذه الزيادة الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن (١) . وروى الإمام أحمد عن الزبير بن العوام قال : لما نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَأَنْتُمْ مَيِّتُونَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ قال الزبير : أى رسول الله ، أيكسر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : «نعم ، ليكررن عليكم ، حتى يؤدى إلى كل ذى حق حقه». قال الزبير : والله إن الامر لشديد. ورواه الترمذى وقال : حسن صحيح (٢) . وروى الإمام أحمد عن عقبه بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ : «أول الخصمين يوم القيامة جاران». تفرد به أحمد (٣) .

وقال ابن عباس : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ : يخاصم الصادق الكاذب ، والمظلوم الظالم ، والمهتدى الضال ، والضعيف المستكبر . وقال أبو العالية : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ : يعنى أهل القبلة . وقال ابن زيد : يعنى أهل الإسلام وأهل الكفر . وقد قدمنا أن الصحيح العموم ، والله أعلم .

الجزء ٢٤ ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۗ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُولَٔئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٢٤﴾ لَّهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٥﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾

يقول تعالى مخاطبا للمشركين الذين افتروا على الله ، وجعلوا معه آلهة أخرى ، وادعوا أن الملائكة بنات الله ، وجعلوا لله ولدا - تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا - ومع هذا كذبوا بالحق إذ جاءهم على السنة رسل الله ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُۥ ﴾ أى : لا أحد أظلم من هذا ؛ لأنه جمع بين طرفى الباطل ، كذب على الله ، وكذب رسول الله ، قالوا الباطل وردوا الحق ؛ ولهذا قال متوعدا لهم : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴾ وهم الجاحدون المكذوبين .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦ ﴾ قال مجاهد ، وقتادة ، والربيع بن أنس ، وابن زيد : ﴿ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ : هو رسول الله ﷺ . وقال السدى : هو جبريل عليه السلام ، ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ يعنى : محمدا ﷺ . وقال ابن عباس : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ ﴾ : من جاء بلا إله إلا الله ﴿ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ يعنى : محمدا ﷺ . وقرأ الربيع بن أنس : «الذين جاؤوا بالصدق» يعنى : الأنبياء ، « وصدقوا به » يعنى : الاتباع . وقال مجاهد : ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ﴾ قال : أصحاب القرآن المؤمنون يجيئون يوم القيامة ، فيقولون : هذا ما أعطيتمونا ، فعملنا فيه بما أمرتمونا . وهذا القول عن مجاهد يشمل كل المؤمنين ؛ فإن المؤمن يقول الحق ويعمل به ، والرسول ﷺ أولى الناس بالدخول فى هذه الآية على هذا التفسير ، فإنه

(١) المسند (١٤٠٥) والترمذى (٣٣٥٦) وابن ماجه (٤١٥٩) . وقال الشيخ شاکر : «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (١٤٣٤) والترمذى (٣٣٣٦) . وقال الشيخ شاکر : «إسناده صحيح» .

(٣) المسند (١٥١/٤) وقال الهيثمى فى الزوائد (٣٣٩/١٠) : «رواه أحمد بإسناد حسن» .

جاء بالصدق، وصدق المرسلين، وأمن بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو رسول الله ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾: المسلمون. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ابن عباس: اتقوا الشرك. ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يعني: في الجنة، مهما طلبوا وجدوا، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ. لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَأُولَئِكَ الَّذِينَ تَقْبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الاحقاف: ١٦].

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ؟ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْسِكَةٌ رَحْمَتِي؟ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَتَقَوَّمُوا عَمَلُوا عَلَى مَكَانِكُمْ إِنِّي عَسِى أَسْأَلُكُمْ عَنْ مَنَاسِكِكُمْ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ عِدَابًا مُهِمًّا ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ - وقرأ بعضهم: «عباده» - يعني: أنه تعالى يكفي من عبده وتوكل عليه. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يعني: المشركين يخوفون الرسول ويتوعدونه بأصنامهم وألهتهم التي يدعونها من دونه، جهلا منهم وضلالا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ. وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ أي: منيع الجناب لا يضام، من استند إلى جنبه ولجا إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه، ولا أشد انتقاما منه، ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ يعني: أن المشركين كانوا يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء كلها، ومع هذا يعبدون معه غيره، بما لا يملك لهم ضرا ولا نفعا؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِ بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُنْسِكَةٌ رَحْمَتِي﴾ أي: لا تستطيع شيئا من الأمر. عن ابن عباس مرفوعا: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفت الصحف، وردفت الأقلام، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا» (١).

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافي، عليه توكلت وعليه يتوكل المتوكلون، كما قال هود، عليه السلام، حين قال له قومه: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ. مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُوْنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون. إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٤ - ٥٦].

(١) المسند (٢٦٦٩) والترمذي (٢٥١٦) وقال: «حدث حسن صحيح».

وقوله: ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ۚ أَي: على طريقتكم، وهذا تهديد ووعد ﴿ إِنِّي عَابِلٌ ۚ أَي: على طريقتي ومنهجي، ﴿ فَسَوْفَ نَعْتَمُونَ ۚ أَي: ستعلمون غب ذلك ووباله ﴿ مَن يَأْتِهِ عَذَابٌ بِغَيْرِهِ ۚ أَي: من الدنيا ﴿ وَيَجُلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّبِينٌ ۚ أَي: دائم مستمر، لا محيد له عنه. وذلك يوم القيامة - أعاذنا الله منها .

﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلَّذِينَ أَلْحَقُوا بِهِ الْحَقَّ مِمَّنْ أَهْتَكَدَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرُكْبِيلٍ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

يقول تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ يعني: القرآن ﴿ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أي: لجميع الخلق من الإنس والجن لتتذرعهم به ، ﴿ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ﴾ أي: فلنما يعود نفع ذلك إلى نفسه ، ﴿ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ﴾ أي: إنما يرجع وبال ذلك على نفسه، ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِرُكْبِيلٍ ﴾ أي: بموكل أن يهتدوا، ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [هود: ١٢]، ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد: ٤٠].

ثم قال تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة بأنه المتصرف في الوجود بما يشاء، وأنه يتوفى الأنفس الوفاة الكبرى، بما يرسل من الحافظة الذين يقبضونها من الأبدان، والوفاة الصغرى عند المنام، كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَلَّىٰكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْحَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنْفَخُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الظَّاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَلَّاهُ وَلَمْ يُنْفَخْ عَنْكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٠، ٦١]. فذكر الوفاة الصغرى ثم الكبرى. وفي هذه الآية ذكر الكبرى ثم الصغرى؛ ولهذا قال: ﴿ اللَّهُ يَتَوَلَّىٰ الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ فيه دلالة على أنها تجتمع في الملائكة الأعلى. وفي صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا أَرَىٰ أَحَدَكُمْ إِلَىٰ فِرَاشِهِ فَلْيُقْضِهِ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتَ جَنِينِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ» (١). وقال بعض السلف: يقبض أرواح الأموات إذا ماتوا، وأرواح الأحياء إذا ناموا، فتعارف ما شاء الله تعالى أن تتعارف، ﴿ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ ﴾ التي قد ماتت، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى. قال السدي: إلى بقية أجلها. وقال ابن عباس: يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿ أَوِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مُشْفَعَاتٍ قُلْ أَوْلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَقُولُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ السَّفْعَةُ جَمِيعًا لَهُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾

يقول تعالى ذاماً للمشركين في اتخاذهم شفعاء من دون الله، وهم الأصنام والأنداد، التي اتخذوها من تلقاء أنفسهم بلا دليل ولا برهان حادهم على ذلك، وهي لا تملك شيئاً من الأمر، بل وليس لها

عقل تعقل به، ولا سمع تسمع به، ولا بصر تبصر به، بل هي جمادات أسوأ حالا من الحيوان بكثير. ثم قال: قل يا محمد لهؤلاء الزاعمين أن ما اتخذوه شفعا لهم عند الله، أخبرهم أن الشفاعة لا تنفع عند الله إلا لمن ارتضاه وأذن له، فمرجعها كلها إليه، ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: هو المتصرف فى جميع ذلك، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: يوم القيامة، فيحكم بينكم بعمله، ويجزى كلا بعمله.

ثم قال تعالى ذاما للمشركين أيضا: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أى: إذا قيل: لا إله إلا الله ﴿اشْهَزَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾. ﴿اشْهَزَتْ﴾: نفرت وكفرت واستكبرت. كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات: ٣٥]، أى: عن المتابعة والانقياد لها. فقلوبهم لا تقبل الخير، ومن لم يقبل الخير يقبل الشر؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أى: من الاصنام والانناد ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى: يفرحون ويسرون.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَأَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿وَبَدَأَهُمْ سَخَاتٌ مَا كَسَبُوا وَعَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

يقول تعالى بعد ما ذكر عن المشركين ما ذكر، من المذمة لهم فى حبهام الشرك، ونفرتهم عن التوحيد: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: ادع أنت الله وحده لا شريك له، الذى خلق السموات والأرض وفطرهما، أى: جعلها على غير مثال سبق، ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: السر والعلانية، ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أى: فى دنياهم، ستفصل بينهم يوم معادهم ونشورهم، وقيامهم من قبورهم. روى مسلم عن أبى سلمة بن عبد الرحمن قال: سألت عائشة: بأى شيء كان رسول الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: ﴿اللهم، رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم﴾ (١). وروى الإمام أحمد عن أبى عبد الرحمن قال: أخرج لنا عبد الله بن عمرو قرطاسا وقال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا يقول: ﴿اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت رب كل شيء، وإله كل شيء، أشهد أن لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، وأن محمدا عبدك ورسولك، والملائكة يشهدون، أعوذ بك من الشيطان وشره، وأعوذ بك أن أقترف على نفسى إثما، أو أجره إلى مسلم﴾. تفرد به أحمد (٢). وروى أحمد عن أبى راشد الحيراني قال: أتيت عبد الله بن عمرو فقلت له: حدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ. فألقى بين يدي صحيفة فقال: هذا ما كتب لى رسول الله ﷺ، فنظرت فيها فإذا فيها أن أبى بكر الصديق قال: يا رسول الله، علمنى،

(١) مسلم (٧٧٠ / ٢٠٠).

(٢) المسند (٦٥٩٧) وقال الشيخ شاكر: «إسناده صحيح».

ما أقول إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال له رسول الله ﷺ : «يا أبا بكر، قل: اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، لا إله إلا أنت، رب كل شيء ومليكه، أعوذ بك من شر نفسى، وشر الشيطان وشركه، وأن أقترف على نفسى سوءاً، أو أجره إلى مسلم». ورواه الترمذى، وقال: حسن غريب من هذا الوجه (١).

وقوله: ﴿تَوَلَّوْاْ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ وهم المشركون، ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّمَّا ظَلَمْتُمْ﴾ أى: ولو أن جميع ملك الأرض وضعفه معه ﴿لَا تَقْتُلُواْ بِهِ مَن سَوَّاهُ﴾ أى: الذى أوجه الله لهم يوم القيامة، ومع هذا لا يُقبل منهم الفداء ولو كان ملء الأرض ذهباً، كما قال فى الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنِ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أى: وظهر لهم من الله من العذاب والنكال بهم ما لم يكن فى بالهم ولا فى حسابهم، ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾ أى: وظهر لهم جزاء ما اكتسبوا فى الدار الدنيا من المحارم والمآثم، ﴿وَحَقَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: واحاط بهم من العذاب والنكال ما كانوا يستهزئون به فى الدار الدنيا.

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿فَدَقَّلْنَا لَهُم مِّن قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

يقول تعالى مخبراً عن الإنسان أنه فى حال الضراء يتضرع إلى الله، عز وجل، وينيب إليه ويدعوه، وإذا خوله منه نعمة بغى وطفى، وقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أى: لما يعلم الله من استحقاقى له، ولولا أنى عند الله تعالى خصيص لما خولنى هذا اقال فتادة: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾: على خير عندى. قال الله عز وجل: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ أى: ليس الأمر كما زعم، بل انعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما انعمنا عليه، أيطيع أم يعصى؟ مع علمنا المتقدم بذلك، فهى فتنة أى: اختبار، ﴿وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلهمذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون. ﴿فَدَقَّلْنَا لَهُم مِّن قَبْلِهِمْ﴾ أى: قد قال هذه المقالة وزعم هذا الزعم وادعى هذه الدعوى، كثير من سلف من الأمم، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أى: فما صح قولهم ولا منعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هَؤُلَاءِ﴾ أى: من المخاطبين ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا﴾ أى: كما أصاب أولئك، ﴿وَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ كما قال تعالى مخبراً عن قارون أنه قال له قومه: ﴿لَا تَفْرَحْ إِذْ قَالَ اللَّهُ لَأُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. وأتبع لهما آتاك الله الدار الآخرة ولا نس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين. قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون ﴿[الفصص: ٧٦ - ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعْذِبِينَ﴾ [سأ: ٣٥]. وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أى: يوسع على قوم ويضيقه على آخرين، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: لعبرا وحججا.

﴿ قُلْ يَبْعَادَى الَّذِينَ اسْتَفْزَعُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْضُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا أَحْسَنَ مَّا آتَرْنَا إِلَىٰ إِلَهِكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٤﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ التَّخِيرِينَ ﴿٥٥﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾ تِلْكَ قَدَّ جَاءَتْكَ مَا تَنبَىٰ فَكذبت بها وأنت تكبرت وكنت من الكافرين ﴿٥٨﴾

هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله يغفر الذنوب جميعا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل ريد البحر. ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

روى البخارى عن ابن عباس؛ أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فاكثروا، وزنوا فاكثروا. فاتوا محمدا ﷺ فقالوا: إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة. فنزل: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان: ٦٨] ، ونزل: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ اسْتَفْزَعُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْضُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴾ . وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي^(١) . والمراد من الآية الأولى قوله: ﴿ إِنْ تَابَ وَأَمِنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ الآية [الفرقان: ٧٠] .

فالمراد : أنه يغفر جميع ذلك مع التوبة، ولا يقطن عبد من رحمة الله، وإن عظمت ذنوبه وكثرت؛ فإن باب التوبة والرحمة واسع، قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ [التوبة: ١٠٤] . وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠] ، وقال تعالى فى حق المنافقين: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الذَّرِّكَ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا ﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦] ، وقال: ﴿ قَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَرَبُّنَا إِلَهُ الْوَاحِدُ وَإِن لَّمْ يَتَّخِذِ اللَّهُ عَمَّا يُقُولُونَ لَيْمَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣] ، ثم قال: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤] ، وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَتُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا ﴾ [البروج: ١٠] . قال الحسن البصرى: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، والآيات فى هذا كثيرة جدا. وفى الصحيحين عن أبى سعيد، عن رسول الله ﷺ، حديث الذى قتل تسعا وتسعين نفسا، ثم ندم وسأل عبدا من عباد بنى إسرائيل: هل له من توبة؟ فقال: لا. فقتله وأكمل به مائة. ثم سأل عالما من علمائهم: هل له من توبة؟ فقال: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ ثم أمره بالذهاب إلى قرية يعبد الله فيها، فقصدها فأباه الموت فى أثناء الطريق، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فأمر الله أن يقسوا ما بين الأرضين، فإلى أيهما كان أقرب فهو منها. فوجدوه أقرب إلى الأرض التى هاجر إليها بشير، فقبضته ملائكة الرحمة. وذكر أنه نأى بصلوه عند الموت، وأن الله أمر البلدة الحيرة أن تقرب، وأمر تلك البلدة أن تتباعد^(٢) هذا معنى الحديث.

(١) البخارى (٤٨١٠)، ومسلم (١٩٣/١٢٢)، وأبو داود (٧٢٧٤)، والنسائي (٨٦/٧).

(٢) البخارى (٣٤٧٠)، ومسلم (٤٦/٢٧٦٦).

وقال ابن عباس في قوله: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ إلى آخر الآية، قال: قد دعا الله إلى مغفرته من رعم أن المسيح هو الله، ومن رعم أن المسيح هو ابن الله، ومن رعم أن عزيرا ابن الله، ومن رعم أن الله فقير، ومن رعم أن يد الله مخلوقة، ومن رعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ إِلَهَ اللَّهِ وَيَسْتَفِرُّونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤]. ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [التارعات: ٢٤]، وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٢٨]. قال ابن عباس: من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه.

وعن شتير بن شكل أنه قال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإن أكثر آية في القرآن فرجا في سورة الغرف: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾، وإن أشد آية في كتاب الله تفويضا: ﴿وَمَنْ يَتَىٰ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. فقال له مسروق: صدقت. و عن أبي الكنود قال: مر عبد الله - يعني ابن مسعود - على قاص، وهو يذكر الناس، فقال: يا مذكر، لم تقنط الناس؟ ثم قرأ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والذي نفسى بيده، لو اخطأتم حتى تملأوا خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده، لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله فيغفر لهم». تفرد به أحمد (١). وروى الإمام أحمد عن أبي أيوب الأنصاري، أنه قال حين حضرته الوفاة: قد كنت كتمت منكم شيئا سمعته من رسول الله ﷺ، يقول: «لولا أنكم تذبون، لخلق الله قوما يذبون فيغفر لهم». وأخرجه مسلم والترمذي (٢).

ثم استحث تعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ﴾ أي: ارجعوا إلى الله واستسلموا له، ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ أي: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول العقوبة، ﴿وَأْتِبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ﴾ وهو القرآن العظيم، ﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: من حيث لا تعلمون ولا تشعرون.

ثم قال: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتْنِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي حَسْبِ اللَّهِ﴾ أي: يوم القيامة يتحسر المجرم المفرط في التوبة والإنابة، ويود لو كان من المحسنين المخلصين المطيعين لله عز وجل ﴿وَأَنْ كُنْتَ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ أي: إنما كان عملي في الدنيا عمل ساخر مستهزئ غير موقن مصدق.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: تود أن لو أعيدت إلى الدار فتحسن العمل. قال ابن عباس: أخبر الله سبحانه، ما العباد قائلون قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه. وقال: ﴿وَلَا يَنْبُكُ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتْنِي عَلَىٰ

(١) المسند (٢٣٨/٣). وقال الهيثمي في الزوائد (٢١٨/١٠): «رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله ثقات».

(٢) المسند (٤١٤/٥) ومسلم (٩/٢٧٤٨) والترمذي (٣٥٣٩).

مَا قُرِئَتْ فِي حِجْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتَ لَمِنَ السَّاجِدِينَ . أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الضَّلَّالَ يَبْغَى أَنْ يَلِيَّ كَرَّةً فَأَكْفُرْ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿ فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى : أَنْ لَوْ رُدُّوا لَمَا قَدَرُوا عَلَى الْهُدَى ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَتَوَرَّعُوا تَعَاذُوا لِمَا نُهِوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأتعام : ٢٨] . وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُّ أَهْلِ النَّارِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ : لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ! فَتَكُونُ عَلَيْهِ حَسْرَةً . قَالَ : « وَكُلُّ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ فَيَقُولُ : لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي ! » قَالَ : « فَيَكُونُ لَهُ الشُّكْرُ » . وَرَوَاهُ النَّسَائِيُّ (١) .

ولما غمى أهل الجرائم العود إلى الدنيا، وتحسروا على تصديق آيات الله واتباع رسله، قال سبحانه وتعالى : ﴿ بَلَى قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ أي : قد جاءتك أيها العبد النادم على ما كان منه آياتي في الدار الدنيا، وقامت حججى عليك، فكذبت بها واستكبرت عن اتباعها، وكنت من الكافرين بها، الجاحدين لها .

﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾
﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِغَازِيَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿٢﴾

يخبر تعالى عن يوم القيامة أنه تسود فيه وجوه، وتبيض فيه وجوه، تسود وجوه أهل الفرقة والاختلاف، وتبيض وجوه أهل السنة والجماعة، قال تعالى هاهنا : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ أي : في دعواهم له شريكا وولدا ﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ أي : بكذبهم وافتراءهم .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي : أليس جهنم كافية لهم سجنا وموتلا، لهم فيها الخزي والهوان، بسبب تكبرهم وتجبهم وإبائهم عن الانقياد للحق . عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « إِنْ الْمُتَكَبِّرِينَ يَحْشَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشْيَاءَ الذَّرِّ فِي صُورِ النَّاسِ ، يَمْلُؤُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّفَارِ ، حَتَّى يَدْخُلُوا سَجْنَا مِنَ النَّارِ فِي وَادٍ يُقَالُ لَهُ بُولَسْ ، مِنْ نَارِ الْأَنْيَارِ ، وَيَسْقُونَ عَصَاةَ أَهْلِ النَّارِ ، مِنْ طِينَةِ الْحَبَالِ » (٢) .

وقوله : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِغَازِيَتِهِمْ ﴾ أي : مما سبق لهم من السعادة والفوز عند الله ﴿ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ﴾ أي : يوم القيامة ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي : ولا يحزنهم الفزع الأكبر ، بل هم آمنون من كل فزع ، مزحزون عن كل شر ، مؤملون كل خير .

﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاثَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ أَغْوَى اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ ﴿ وَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أنه خالق الأشياء كلها ، وربها ومليكتها والمتصرف فيها ، وكل تحت تدييره وقهره

(١) المسند (٥١٢/٢) والنسائي (٢/١١٤٥٤) . وروى نحوه البخاري (٣٢٤٠) ومسلم (٦٥/٢٨٦٦) ، (٦٦ ، ٦٥) .

(٢) المسند (٦٦٥٩) ، والترمذي (٢٤٩٢) . وقال الترمذي : « حديث حسن صحيح » . وصحح إسناده الشيخ شاكراً .

وكلايته. وقوله : ﴿ لَهٗ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ قال مجاهد: المقاليد هي: المفاتيح. وكذا قال قتادة. وقال السدي: ﴿ لَهٗ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي: خزائن السموات والأرض. والمعنى على كلا القولين: أن أمانة الأمور بيده، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير؛ ولهذا قال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ أي: حججه وبراهينه ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

وقوله: ﴿ قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ : ذكروا في سبب نزولها ما رواه ابن أبي حاتم وغيره، عن ابن عباس : إن المشركين من جهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى عبادة آلهتهم، ويعبدوا معه إلهه، فنزلت: ﴿ قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ. وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾. وهذه كقوله: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الانعام: ٨٨] .
وقوله: ﴿ هَلِ اللَّهُ فَاعِدٌ وَكُنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ أي: اخلص العبادة لله وحده ، لا شريك له ، أنت ومن معك ، أنت ومن اتبعك وصدقك .

﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ، وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بِيَضْتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ . سُبْحٰنَهُمْ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴾

يقول تعالى: وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش. وقال السدي: ما عظموه حق تعظيمه. وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذبوه . وقال ابن عباس : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ : هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدره الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره . وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكيف ولا تحريف :

روى البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : جاء حبر من الاحبار إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد، إنا نحمد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه، تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ الآية . ورواه الإمام أحمد، ومسلم، والترمذي والنسائي بنحوه (١) . وروى الإمام أحمد عن عبد الله ، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ من أهل الكتاب، فقال: يا أبا القاسم ، أبلغك أن الله يحمل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع ؟ قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه. قال: وأنزل الله عز وجل: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ إلى آخر الآية. وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي (٢). وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال: مر يهودى برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم: يوم يجعل الله

(١) البخارى (٤٨١١ ، ٧٤١٤ ، ٧٤١٥ ، ٧٤٥١) والمسند (٤٠٨٧) ومسلم (١٩ / ٢٧٨٦) والترمذى (٣٢٣٨) والنسائى فى الكبرى (١١٤٥١) .

(٢) المسند (٣٥٩٠) والبخارى (٧٤٥١) ومسلم (٢١ / ٢٧٨٦ ، ٢٢) والنسائى فى الكبرى (١١٤٥٢) .

النساء على ذه - وأشار بالسبابة - والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه - كل ذلك يشير بإصبعه - قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ الآية. وكذا رواه الترمذى، وقال: حسن صحيح غريب^(١). ثم روى البخارى عن أبى هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض، ويقبض السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض». ورواه مسلم^(٢). وروى البخارى عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك». ورواه مسلم^(٣). وقد رواه الإمام أحمد من طريق أخرى بلفظ آخر أبسط من هذا السياق وأطول عن ابن عمر، إن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: «يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم». فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليجرّ به. ورواه مسلم والنسائى وابن ماجه نحوه^(٤).

﴿وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَصَاحِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يَقْتُلُونَ﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَتْ بِالسَّاعَةِ وَالشَّهَادَةُ وَقُضِيَ بِلَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

يقول تعالى مخبرا عن هول يوم القيامة، وما يكون فيه من الآيات العظيمة والزلازل الهائلة، فقوله: ﴿وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَصَاحِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ هذه النفخة هي الثانية، وهي نفخة الصعق، وهي التي يموت بها الأحياء من أهل السموات والأرض، إلا من شاء الله كما جاء مصرحا به مفسرا في حديث الصور المشهور. ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت، وينفرد الحى القيوم الذى كان أولا، وهو الباقي آخرها بالديمومة والبقاء، ويقول: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] ثلاث مرات. ثم يجيب نفسه بنفسه فيقول: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أنا: الذى كنت وحدى وقد قهرت كل شىء، وحكمت بالفناء على كل شىء. ثم يحيى أول من يحيى إسرئيل، ويأمره أن ينفخ فى الصور أخرى، وهى النفخة الثالثة نفخة البعث، قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ نُفِخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يَقْتُلُونَ﴾ أى: أحياء بعد ما كانوا عظاما ورفاتا، صاروا أحياء ينظرون إلى أهوال يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿لَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُمْ بِالسَّاعَةِ﴾ [التارعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقُولُونَ إِن لَّبِثُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥].

روى الإمام أحمد عن النعمان بن سالم قال: سمعت يعقوب بن عاصم بن عروة بن مسعود قال: سمعت رجلا قال لعبد الله بن عمرو: إنك تقول: الساعة تقوم إلى كذا وكذا؟ قال: لقد حممت ألا أحدثكم شيئا، إنما قلت: سترون بعد قليل أمرا عظيما. ثم قال عبد الله بن عمرو: قال رسول الله

(١) المسند (٢٩٩٠) والترمذى (٣٢٤٠).

(٢) البخارى (٧٤١٢) ومسلم (٢٥/٢٧٨٨).

(٣) المسند (٥٤١٤) ومسلم (٢٥/٢٧٨٨) والنسائى فى الكبرى (٧٦٨٩) وابن ماجه (٤٢٧٥).

﴿صَلَّى﴾ : «يخرج الدجال في أمي، فيمكث فيهم أربعين - لا أدري أربعين يوماً أو أربعين عاماً أو أربعين شهراً أو أربعين ليلة - فيبعث الله عيسى ابن مريم، كأنه عروة بن مسعود الثقفي، فيظهر فيهلكه الله. ثم يلبث الناس بعده سنين سبعا ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه». قال: سمعتها من رسول الله ﷺ: «ويبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكراً». قال: «فيمثل لهم الشيطان فيقول: الا تستجيبون؟ فيأمرهم بالآوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارة أرزاقهم، حسن عيشهم. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فيصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق. ثم يرسل الله - أو: ينزل الله مطرا كأنه الطل - أو الظل، شك نعمان - فتنبت منه أجساد الناس. ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يقال: يا أيها الناس، هلموا إلى ربكم: ﴿وَقَفَّوهُمْ إِنَّهُمْ مُسْوَوُونَ﴾ [الصفات: ٢٤]، قال: «ثم يقال: اخرجوا بعت النار». قال: «فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين. فيومئذ تبعث الولدان شيئا، ويومئذ يكشف عن ساق». انفراد بإخراجه مسلم (١). وروى البخاري عن أبي هريرة يحدث عن النبي ﷺ قال: «بين النفتختين أربعون». قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوما؟ قال: آبيت، قالوا: أربعون سنة؟ قال: آبيت، قالوا: أربعون شهرا؟ قال: آبيت، ويبلى كل شيء من الإنسان إلا عجبُ ذنبه، فيه يركب الخلق (٢).

وقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي: أضاءت يوم القيامة إذا تجلى الحق، تبارك وتعالى، للخلائق لفصل القضاء «وَوُضِعَ الْكِتَابُ» قال قتادة: كتاب الأعمال، «وَجِيءَ بِالْبَيِّنَاتِ» قال ابن عباس: يشهدون على الأمم بأنهم بلغوهم رسالات الله إليهم، «وَالشَّهَادَةِ» أي: الشهداء من الملائكة الحفظة على أعمال العباد من خير وشر، «وَقَضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ» أي: بالعدل، «وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ». قال الله: ﴿وَتَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكُنَّا بِهَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً بَضَاعُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، ولهذا قال: ﴿وَوَقَّيْتُ كُلَّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ﴾ أي: من خير أو شر، «وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ».

﴿وَمِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٠٦﴾

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الكفار كيف يساقون إلى النار، وإنما يساقون سوقا عنيقا بزجر وتهديد ووعيد، كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دُعَاءً﴾ [الطور: ١٣] أي: يدفعون إليها دفعا. هذا وهم عطاش ظماء، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا. وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ رُودًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. وهم في تلك الحال صم وبكم وعمى، منهم من يمشى على وجهه «وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عَمِيًَّا وَبُكْمًا وَصَمًّا مَا وَهَمُ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤَهَا فَصَبَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ أى : بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها سريعا ، لتعجل لهم العقوبة ، ثم يقول لهم خزنتها من الزبانية - الذين هم غلاظ الاخلاق ، شداد القوى ، على وجه التصريح والتوبيخ والتنكيل : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ ﴾ أى : من جنسكم تتمكنون من مخاطبتهم والاخذ عنهم ، ﴿ يَتَّبِعُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ ﴾ أى : يقيمون عليكم الحجج والبراهين على صحة ما دعوكم إليه ﴿ وَيَهَيِّئُونَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ أى : ويحذرونكم من شر هذا اليوم ، فيقول الكفار لهم : ﴿ بَلَىٰ ﴾ أى : قد جاؤنا وأنذرونا ، وأقاموا علينا الحجج والبراهين ﴿ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى : ولكن كذبناهم وخالفناهم ، لما سبق إلينا من الشقوة التى كنا نستحقها حيث عدلنا عن الحق إلى الباطل ، كما قال تعالى مخبرا عنهم فى الآية الاخرى : ﴿ كَلِمًا أَتَىٰ لَهَا فَوْجٌ سَالَمٌ خَزَنَتُهَا أَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بِلُحَىٰ ضَلَالٍ كَبِيرٍ . وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ٨ - ١٠] أى : رجعوا على أنفسهم باللامه والندامة ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١١] أى : بعدا لهم وخسارا . وقوله هاهنا : ﴿ قَبِيلٌ ادْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : كل من رآهم وعلم حالهم يشهد عليهم بأنهم مستحقون للعذاب ؛ ولهذا لم يستند هذا القول إلى قائل معين ، بل أطلقه ليدل على أن الكون شاهد عليهم بأنهم مستحقون ما هم فيه بما حكم العدل الخبير عليهم به ؛ ولهذا قال جل وعلا : ﴿ قَبِيلٌ ادْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى : ماكين فيها لا خروج لكم منها ، ولا زوال لكم عنها ، ﴿ فَبَسْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أى : فبس المصير وبس المقيل لكم ، بسبب تكبركم فى الدنيا ، وبإياكم عن اتباع الحق ، فهو الذى صيركم إلى ما أنتم فيه ، فبس الحال وبس المال .

﴿ وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبِّبْتُ لَكُمْ فَادْخُلُوا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

وهذا إخبار عن حال السعداء المؤمنين حين يساقون على النجائب وفدا إلى الجنة ﴿ زُمَرًا ﴾ أى : جماعة بعد جماعة : المقربون ، ثم الأبرار ، ثم الذين يلونهم ، كل طائفة مع من يناسبهم : الأنبياء مع الأنبياء ، والصديقون مع أشكالهم ، والشهداء مع أضرابهم ، والعلماء مع أقرانهم ، وكل صنف مع صنف ، كل زمرة تناسب بعضها بعضا . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤَهَا ﴾ أى : وصلوا إلى أبواب الجنة بعد مجاوزة الصراط ، حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فاقصص لهم مظالم كانت بينهم فى الدنيا ، حتى إذا هُتِبُوا وتَقَوُّوا أذن لهم فى دخول الجنة ، وقد ورد فى حديث الصور أن المؤمنين إذا انتهوا إلى أبواب الجنة تشاوروا فيمن يستأذن لهم بالدخول ، فيقصدون آدم ، ثم نوحا ، ثم إبراهيم ، ثم موسى ، ثم عيسى ، ثم محمدا ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كما فعلوا فى المرصات عند استشفاعهم إلى الله ، عز وجل ، أن يأتى لفصل القضاء ، ليظهر شرف محمد ﷺ على سائر البشر فى المواطن كلها . وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس ، رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول شفيع فى الجنة » وفى لفظ لمسلم : « وأنا أول من يقرع باب الجنة » (١) . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك ، قال :

قال رسول الله ﷺ : «أتى باب الجنة يوم القيامة فاستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد. قال: يقول: بك أمرت ألا أفتح لأحد قبلك». ورواه مسلم (١) .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ : «أول زمرة تلج الجنة صورهم على صورة القمر ليلة البدر، ولا يصقون فيها، ولا يمتخطون فيها، ولا يتغوطون فيها. آتيتهم وأشاطهم الذهب والفضة، ومجارهم الآلوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم، من الحسن. لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا». وروى البخارى ومسلم نحوه (٢) .

وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ : «لؤلؤ زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يطونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون ولا يمتخطون، وأشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجارهم الآلوة، وأزواجهم المحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم، ستون ذراعاً في السماء». وأخرجاه أيضاً (٣) . وعن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمي زمرة، هم سبعون ألفاً، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عكاشة بن محصن فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال ﷺ : «سبقك بها عكاشة». أخرجاه (٤) . ولهما عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمي سبعون ألفاً - أو: سبعمائة ألف - أخذ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم وآخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر» (٥) .

وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾: لم يذكر الجواب هاهنا، وتقديره: حتى إذا جاوزوها، وكانت هذه الأمور من فتح الأبواب لهم إكراماً وتعظيماً، وتلقتهن الملائكة الخزنة بالبشارة والسلام والثناء، لا كما تلقى الزبانية الكفرة بالثريب والثائب، فتقديره: إذا كان هذا سعدوا وطابوا، وسرّوا وفرحوا، بقدر كل ما يكون لهم فيه نعيم. وإذا حذفت الجواب هاهنا ذهب الذهن كل مذهب في الرجاء والأمل. ومن زعم أن «الواو» في قوله: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ ولو الثمانية، وامتنل به على أن أبواب الجنة ثمانية، فقد أبعث النجعة، وأغرق في التزع. وإنما يستفاد كون أبواب الجنة ثمانية من الأحاديث الصحيحة.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله، دعى من أبواب الجنة، وللجنة أبواب، فمن كان من أهل الصلاة دعى من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الريان» فقال أبو بكر، رضى الله تعالى عنه: يا رسول الله، ما على

(١) المسند (٣ / ١٣٦) ومسلم (١٩٧ / ٣٣٣) .

(٢) المسند (٨١٨٣) والبخارى (٣٢٢٥) ومسلم (١٤ / ٢٨٣٤) .

(٣) أبو يعلى في مسنده (٤٧٠ / ١٠) والبخارى (٣٢٢٧) ومسلم (١٥ / ٢٨٣٤) .

(٤) البخارى (٦٥٤٢) ومسلم (٣٦٩ / ٢١٦) . (٥) البخارى (٦٥٥٤) ومسلم (٣٧٣ / ٢١٩) .

أحد من ضرورة دُعي من أيها دعي، فهل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم». ورواه البخارى ومسلم بنحوه (١). وفيهما عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة ثمانية أبواب، باب منها يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون» (٢). وفي صحيح مسلم، عن عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ فيلغ - أو: فيسبغ الوضوء - ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء» (٣).

ذكر سعة أبواب الجنة - نسأل الله العظيم من فضله أن يجعلنا من أهلها :

في الصحيحين عن أبي هريرة في حديث الشفاعة الطويل: «يقول الله: يا محبيد، أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأيمن، وهم شركاء الناس في الأبواب الأخرى. والذي نفس محمد بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة - ما بين عضدتي الباب - لكما بين مكة وهجر - أو: هجر ومكة». وفي رواية: «مكة وبصرى» (٤). وفي صحيح مسلم، عن عتبة بن غزوان أنه خطبهم خطبة فقال فيها: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام». وفي المسند مثله (٥).

وقوله: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ أى: طابت أعمالكم وأقوالكم، وطاب سعيكم فطاب جزاؤكم ﴿فَادْخُلُوا خَالِدِينَ﴾ أى: ماكنين فيها أبدا، لا ييغون عنها حولا. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: يقولون عند ذلك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ أى: الذى كان وعدنا على السنة ورسله الكرام، كما دعوا في الدنيا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءتْ رَبَّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الامراء: ٤٣]، ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ. الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

وقولهم: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَهْرًا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ قال أبو العالية، وأبو صالح، وقتادة، والسدى، وابن زيد: أى أرض الجنة. وهذه الآية كقولها: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الانبيا: ١٠٥]، ولهذا قالوا: ﴿نَهْرًا مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أى: أين شئنا حللنا، فنعم الأجر أجرنا على عملنا. وفي الصحيحين عن أنس في قصة المعراج قال النبى ﷺ: «أدخلت الجنة، فإذا فيها جناهد اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك» (٦). وعن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ سأل ابن صائد عن تربة الجنة؟ فقال: «درمكة بيضاء مسك خالص». فقال رسول الله ﷺ: «صدق». رواه مسلم (٧).

(١) المسند (٧٦٢١) والبخارى (٣٦٦٦) ومسلم (١٠٢٧/٨٥).

(٢) البخارى (١٨٩٦) ومسلم (١١٥٢/١٦٦).

(٣) مسلم (١٧/٢٣٤). (٤) البخارى (٤٧١٢) ومسلم (٣٢٧/١٩٤).

(٥) مسلم (١٤/٢٩٦٧) والمسند (٣/٥).

(٦) مضى بطوله عند تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء، وخرجناه هناك.

(٧) مسلم (٩٢/٢٩٢٨).

﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ

لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

لما ذكر تعالى حكمه في اهل الجنة والنار، وأنه نَزَلَ كُلًّا فِي الْمَحَلِّ الَّذِي يَلِيْقُ بِهِ وَيُصْلِحُ لَهُ، وَهُوَ الْعَادِلُ فِي ذَلِكَ الَّذِي لَا يَجُورُ - أَخْبَرَ عَنْ مَلَائِكَتِهِ أَنَّهُمْ مُحَدِّقُونَ مِنْ حَوْلِ عَرْشِهِ الْمَجِيدِ، يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَيُعْجِدُونَهُ وَيُعْظَمُونَهُ وَيُقَدِّسُونَهُ وَيَتَزَهَّوْنَهُ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْجُورِ، وَقَدْ فَصَّلَ الْقَضِيَّةَ، وَقَضَى الْأَمْرَ، وَحَكَمَ بِالْعَدْلِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴾ أَيْ: بَيْنَ الْخَلَائِقِ ﴿ بِالْحَقِّ ﴾. ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أَيْ: وَنَطَقَ الْكَوْنُ أَجْمَعُ - نَاطِقُهُ وَبَيْهِيْمُهُ - اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ، بِالْحَمْدِ فِي حُكْمِهِ وَعَدْلِهِ؛ وَلِهَذَا لَمْ يَسْتَدِ الْقَوْلُ إِلَى قَائِلٍ بَلْ أَطْلَقَهُ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ شَهِدَتْ لَهُ بِالْحَمْدِ. قَالَ قَتَادَةَ: افْتَتَحَ الْخَلْقُ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [الانعام: ١]، وَاخْتَتَمَ بِالْحَمْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.